الاستشراق: ظاهرة انتهت أم بداية جديدة *

Orientalism is a phenomenon that is finished or renewed

ط د/ بوزغاية وفاء

جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية (الجزائر)،(مخبر التأويل وتحليل الخطاب)

wafa.bouzeghaia@univ-bejaia.dz

ملخص:

يمثل الاستشراق نوعا من أنواع الصراع الفكري المتواصل بين الحضارتين الغربية والشرقية، لذا يعد من أهم الظواهر المعرفية والثقافية التي عكست رؤية الآخر الغربي للحضارة الشرقية عامة، والحضارة العربية الإسلامية خاصة، بالتعمق في ثقافاتها وحضارتها ودينها ولغاتها وآدابها وعلومها. نظرا لأهمية هذه الظاهرة فكريا وثقافيا فقد كتب حولها الكثير من الدراسات، وانطلاقا من هذا كانت إشكالية ورقتنا البحثية حول: هل الاستشراق ظاهرة انتهت وتلاشت أم مازلنا نعيشها الآن، ولكن بتسميات مختلفة وأساليب جديدة تمارس علينا؟ رغم اختلاف الدارسين في تحديد بداياته الأولى، وتقسيم مراحله التاريخية، فمنهم من يربط بدايتها مع ظهور الإسلام، ومنهم من يرجع بداياته للحروب الصليبية، ورغم استمرار الخلاف إلى عصرنا هذا، حول موت وانتهاء هذه الظاهرة من استمرارها حتى لو تغيرت مسمياتها وأساليبها، ولكن يفترض أن مضمونه وروحه مازال موجودا ومستمرا إلى يومنا هذا.

سنحاول في ورقتنا هذه الإحاطة أولا بمفهوم الاستشراق، ثم نرصد البدايات الأولى لهذه الظاهرة، ومراحل تطورها، ثم نبين الاستشراق بصورته الجديدة في عصرنا هذا، قصد استخلاص أوجه التشابه والتباين بين استشراق الأمس واستشراق اليوم الجديد.

الكلمات المفاتيح: الاستشراق، المستشرق، الغرب، الشرق، الآخر، الصراع الحضاري.

Abstract:

Orientation represents the enduring intellectual conflict between Western and Eastern civilizations. Therefore, it is considered one of the most significant cognitive and cultural phenomena that reflected the West's vision of Eastern civilization in general, and specifically Arab-Islamic civilization, by delving into its cultures, religions, languages, literatures, and sciences. Because of its importance intellectually and culturally many

*

تاريخ استلام البحث:2024/06/08	تاريخ قبول البحث: 2024/09/25	تاريخ النشر: 2024 /10/15

studies and books were written about it. From this perspective, our research paper addresses the question: Is Orientalism a phenomenon that has ended or do we still experience it under different names and through new imposed practices, Despite the differing opinions among scholars regarding its initial beginnings and the division of its historical stages, -some link its beginning with the advent of Islam, and some of them associate it to the Crusades, debates about the death or continuation of this phenomenon persist to this day. It is suggested that its essence and spirit remain present and ongoing.

In this paper, we will first explore concept of Orientalism, then trace its early beginnings and its stages of development and finally illustrate how Orientalism manifests in its new form in our contemporary era, aiming to extract similarities and differences between yesterday's Orientalism and today's new Orientalism.

Keywords: Orientalism; Orientalism; West; East; Other; Civilized Conflict.

- مقدمة:

تعد ظاهرة الاستشراق من أكثر المواضيع التي أثارت الكثير من النقاشات حولها، وكتب حولها كتبا ومقالات كثيرة، ولازالت إلى يومنا هذا من أكثر المواضيع إثارة للجدل، لكونها ظاهرة قديمة ضاربة في تاريخنا العربي الإسلامي، خاصة عندما وجدنا أن تاريخنا وتراثنا يجمع ويكتب بأقلام أناس غرباء دخلاء على بيئتنا، وتعود بدايات الاستشراق إلى الرهبان الذين قدموا إلى لأندلس، وفتنوا بحضارتها وعلومها، وتتلمذوا على يد شيوخها وعلمائها فدرسوا الأدب والدين والسياسة والفقه واللغة، ولما عادوا إلى أوطانهم انتشرت تراجم القرآن ودواوين الشعر وكتب الفقه واللغة، فكانت الحركات الاستشراقية في بدايتها حركات استطلاعية استكشافية لدول الشرق، وعد الاستشراق بذلك كنوع من الغزو الفكري والثقافي، ويمهد لغزو عسكري، يمثل الوجه الآخر الخفي لهذه الظاهرة، والتي كانت بدايتها مع الحروب الصليبية، ومثلت سنة 1312 منعطفا في تاريخ الاستشراق حيث عقد أول مؤتمر حول استشراق في فيينا، وكانت التوصيات بإنشاء كراس علمية له في الجامعات، فبدا هنا التوجه العلمي للاستشراق، وتحول من مجرد محاولات وجهود فردية الى دراسات أكاديمية، لها منهجها وأساليبها العلمية في الدراسة، وكانت من أبرز المراحل التي وجهت مسيرة الاستشراق توجيها علمياً.

لايزال موضوع الاستشراق في عصرنا الحالي من المواضيع الشائكة، لهذا فقد كان موضوع بحثنا هذا حول إشكالية رئيسية هي: هل الاستشراق ظاهرة انتهى أثرها من الواقع وأعلن موتها أم مازلنا نعيشها إلى يومنا هذا؟ وكيف يرى النقاد والدارسون الاستشراق كثقافة وفكر ومنهج بين الماضي

والحاضر؟ وهي إشكالية مؤسسة انطلاقا من تباين الآراء بين النقاد والدارسين، ففريق منهم يعلن نهاية الدراسات الاستشراقية وموت الظاهرة، بينما يؤكد فريق ثان من الدارسين على استمرار الاستشراق حتى يومنا هذا، رغم تغير المسميات، لكن بقي جوهر هذه الدراسات واحدا.

نهدف في بحثنا هذا الى الإجابة عن التساؤلات المطروحة، وذلك من خلال تحديد ماهية المصطلح، ثم استعراض أبرز مراحل الاستشراق، بداية مع أول احتكاك مع الشرق مع ظهور الإسلام، مرورا بالحروب الصليبية وصولا إلى عصرنا الحالي، وتحديد الشكل الجديد الذي آل إليه الاستشراق في عصرنا الحالي، مستعرضين آراء النقاد حول نهاية الاستشراق أم استمراره.

1. مفهوم الاستشراق:

1.1. لغة:

ورد في معجم " **لسان العرب لابن منظور**" كلمة الاستشراق المشتقة من فعل "شرق"، يقال: شرقت الشمس: طلعت، الشرق والمشرق - بكسر الراء - اسم الموضع، أي جهة شروق الشمس". (1)

أما في" **معجم الوسيط**" " شرقت الشمس شرقاً وشروقاً: إذا طلعت الشمس من جهة الشرق وأضاءت على الأرض، وشجرة شرقية تطلع عليها الشمس من شروقها إلى نصف النهار، وشرق البلحُ: لون بحمرة وشَرِقَ وَجهُه: احمر خجلا، أما لفظة (الشرق) و(المشرق): تمثل جهة شروق الشمس". (2)

يرى «**إسحاق موسى الحسيني**» أن مصطلح " الاستشراق " ومشتقاته لفظة محدثة في اللغة العربية، والتي استحدثها النقاد من ترجمة كلمة "**Orientalism**"، فقد أطلق على الدارسين لهذا العلم أسماء كثيرة من "**مستشرقين**"، ومنهم من يسميهم " **علماء المشرقيات** " بدلا من " **مستشرقين**"، ومنهم من يؤثرون تسميتهم " **عرباني**"(3)، لكن نجد في دراسات شيوع استعمال لفظة " **استشرق** " و"**مستشرق**"، لهذا لا بأس من استعمالهما في ورقتنا البحثية هذه بحكم أنها الأكثر استعمالا.

1.2.اصطلاحا:

الباحث عن ماهية الاستشراق يجد نفسه أمام زخم كبير من التعريفات والآراء، لذلك ارتأينا التطرق لبعض منها لكشف اللبس عن مصطلح، فالاستشراق غزو فكري أو ثقافي، حيث مثل الوجه الآخر للغزو المسلح، فكان وسيلة الغرب لفرض سيطرتها على الشعوب المستعمرة وطمس هويتها، فهو مجموعة الدراسات التي يقوم بها أهل الغرب عن الشرق، حول ديانته وأعرافه وثقافته، فقد أطلق على الدراسة التي تعنى بدراسة العالم الشرقي مصطلح الاستشراق، وأطلق على الغربيين الذين يقومون بدراسات استشراقية، إنهم جماعة من

المؤرخين والكتـاب الأجانب الذين خصصوا جزءا من حيـاتهم في دراسة الشرق، وتتبع المواضيع التراثية والتاريخية والدينية والاجتماعية للشرق. (4)

نستهل تحديد ماهية هذا المصطلح بآراء المستشرقين أنفسهم فهم أهله، ومن هؤلاء المستشرقين « **رودى بارت**» (Paret Rudi)، حيث يقول: «**الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، وأقرب شيء إليه إذن أن نفكر في الذي أطلق عليه، كلمة استشراق مشتقة من كلمة «شرق»، وكلمة شرق تعنى مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي**». (5)

يرجع المستشرق الفرنسي «**مكسيم رودنسون**» (Rodinson Maxime) وجود هذه الدراسات للشرق لحاجة وجود فرع معرفي مختص في دراسة الشرق، ويضيف بأن « **الحاجة كانت ماسة لوجود متخصصين للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلمية (...) ومفهوم "الاستشراق" يشير إلى تعمق أكثر في الدراسة، كما أدرك العلماء في هذه الفترة أنّه لا يمكن القيام بأي دراسة للشرق قبل القيام بدراسة سابقة للنصوص الأصلية، والتي تحتاج بدورها إلى معرفة عميقة باللغات الأصلية، إنّ المتخصصين قد تكون لديهم أفكار عامة ولكنهم يجب أن يبعدوها قدر الإمكان عن عملهم العلمي، ولم يكن يتبقى لهم وقت كاف للاطلاع على الاتجاهات العلمية خارج نطاق اختصاصهم**»(6)، ومن خلال هذا التعريف نجد أن (رودونسون) عرف الاستشراق بكونه دراسات معمقة تستوجب وجود مختصين من فروع المعرفة لدراسة الشرق بصورة معمقة.

أما إذا انتقلنا إلى مفهوم هذا المصطلح عند الدارسين العرب؛ نجد في مقدمتهم «**إدوارد سعيد**»، الذي تناول هذا المصطلح في كتابه: «**الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق**»، والذي حدد فيه تعريف الاستشراق وفق ثلاث تعريفات وتصنيفات، حيث يرى في تعريفه الأول للاستشراق أنه: «**مبحث أكاديمي، بل إن هذا المفهوم لا يزال مستخدما في عدد من المؤسسات الأكاديمية، فالمستشرق هو كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء بحوث في موضوعات خاصة بالشرق، سواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان، أو علم الاجتماع، أو التاريخ، أو فقه اللغة، وسواء اتصل بجوانب الشرق الخاصة أو العامة**»(7)، ويشير «**إدوارد سعيد**» من خلال تعريفه هذا إلى كون الاستشراق علما ودراسات أكاديمية يقوم بها دارسون أجانب للعالم الشرقي في تخصصات مختلفة، وهذا ما يحاول الغرب إظهاره للشرق، لأن الاستشراق علم ينتمي إلى حقل الدراسات الأكاديمية العلمية والمعرفية عند الغرب.

بيد أن في تعريفه الثاني للاستشراق يرى «**إدوارد سعيد**» أن رؤية الغرب للشرق أعم وأشمل من كونها دراسات أكاديمية في قوله: « **فالاستشراق أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى "الشرق"، وبين يسمى في معظم الأحيان "الغرب"، وهكذا فإن عددا بالغ الكثرة من**

الكتّاب والشعراء والروائيين والفلاسفة (...) قد قبلوا التمييز الأساسي بين الشرق والغرب، باعتباره نقطة انطلاق لوضع نظريات مفصلة وإنشاء ملاحم، وكتابة روايات، وأوصاف اجتماعية ودراسات سياسية عن الشرق، وعن أهله وعاداته وعن "عقله" ومصيره»[8] ، حيث يعد أن دراسة الغرب للشرق دراسات أكاديمية ما هي إلا شعارات ليس إلا، لكون الدارسين المستشرقين في دراساتهم قد ميزوا بين قطبين مختلفين، لكل منهما صفاته الخاصة التي تميزه عن الآخر، ويمثل له الشرق نقطة جذب لأنه عالم مخالف له في الثقافة واللغة والدين والعادات والتقاليد، فالخطاب الاستشراقي يمثل للدارسين المستشرقين دراسة للآخر المختلف عنه، ولهذا تختلف دراسته له من حيث المنهج وأساليب الدراسة الممارسة.

أما المعنى الثالث للاستشراق الذي أشار إليه «**إدوارد سعيد**» في كتابه، مستندا فيه أكثر على عناصر تاريخية ومادية في قوله: «**فإذا اعتبرنا أواخر القرن الثامن عشر نقطة عامة إلى حد بعيد، استطعنا أن نناقش ونحلل الاستشراق بصفته المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق - والتعامل معه معناه التحدث عنه، واعتماد آراء معينة عنه ووصفه وتدريسه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه، والسيطرة عليه، وباختصار بوصف الاستشراق أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلط عليه**»[9]، ويشير في هذا التعريف إلى أن الاستشراق لم يقف في حدود الدراسة الأكاديمية لعادات وثقافة وحضارة الشرق، بل تعداها فأصبح يمثل أسلوبا للسيطرة وفرض القوة والهيمنة والتسلط على الشرق، فأشار «**إدوارد سعيد**» للدوافع الكامنة والخفية والمشبوهة لدراسات المستشرقين، فهي ليست في أغلبها بهدف الدراسة الأكاديمية والمعرفية، كما هو ظاهر لنا، بل يغلب عليها منطق السيطرة في المجال السياسي والاقتصادي والحضاري.

يعرف «**حسن الزيات**» (**الاستشراق**) في كتابه: « **تاريخ الأدب العربي**» قائلا: «**بأنه دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه، وعاداته ومعتقداته وأساطيره، لكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم، إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما أشاعته منائر بغداد والقاهرة من أضواء مدنية وعلم، كان الغرب من بحره إلى محيطه غارقا في غياهب الجهل والبربرية والجموح**»[10]، وربط « **الزيات**» في مفهومه بين رؤيتين للاستشراق، الأولى ارتبطت بالمفهوم القديم الذي ارتبط الاستشراق بدراسة العبرية لصلتها بالدين، والعربية لصلتها بالعلم في العصور الوسطى، أما المفهوم الجديد للاستشراق يمثل دراسة لغات وآداب وعلوم، وعادات ومعتقدات وأساطير الحضارة الشرقية.

ومن خلال ما سبق ذكره من آراء النقاد حول تحديد ماهية **(الاستشراق)**، نستخلص أن أغلب المفاهيم تتقاطع في منظور واحد، هو أن الاستشراق يمثل دراسات أكاديمية من طرف الغرب لثقافة الشرق من كافة جوانبه؛ علومه، تاريخه، أديانه، شعوبه، لغاته وآدابه فقهه، على يد دارسين أجانب غربين أطلق عليهم اسم المستشرقين.

2. مراحل نشأة الاستشراق:

2.1. بدايات الاستشراق الأولى:

اختلف الباحثون في تحديد البدايات الأولى للاستشراق وتحديد سنة معنية لظهوره، حيث لا تزال فترة نشأته مجهولة عدا بعض الافتراضات، ويذهب بعض الدارسين أن بداية احتكاك الغرب بالشرق كان مع ظهور الإسلام، وتحديدا في غزوة مؤتة، والتي صنفها الدارسون أولى احتكاكات الغرب بالشرق.

يرجع فريق آخر من الدارسين أن بداية اتصال الغرب بالحضارة العربية، والذي كان اتصالاً فعالا ومؤثرا مع ظهور طلائع المستشرقين، ومعظمهم من الرهبان الغربيين الذين قصدوا الأندلس التي كانت في أوج مجدها، ودرسوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتتلمذوا على يد كبار علمائها في مختلف المجالات، ومن أوائل هؤلاء، في تلك الحقبة التاريخية، منهم من قال إنه الراهب «**يوحنا الدمشقي**»، الذي جمع معلوماته بعد أن اتصل بمفكري الإسلام ورجالات الدولة الأموية، بحكم موقع أسرته الوظيفي، في خدمة حكام بني أمية في بلاط الدولة، وكانت كتابات «**يوحنا**» أحد المصادر التي استند عليها بعض رجالات الغرب في دراساتهم المقبلة عن القرآن والإسلام [11].

هناك من يرى منهم أن أولهم كان الراهب الفرنسي: «**جيبير Gebert**» المولود (عام 938)، فقد قصد الأندلس وأخذ عن علمائها، فأتقن اللغة العربية ودرس العلوم الإسلامية، فكان من أنبه خريجي جامعة قرطبة، واعتبره المؤرخون من أوسع علماء عصره ثقافة بالعربية، والرياضيات والفلك. ولما أصبح حبراً أعظم، أطلق عليه اسم «**سلفستر الثاني**» (عام 999)، فأمر على الفور بإنشاء مدرستين عربيتين: الأولى في روما مقر خلافته، والثانية في وطنه فرنسا، وقيل إنه أول من صنع ساعة رقاصة، وبث الأعداد العربية في أوروبا التي كان ينقصها رقم الصفر، وترجم بعض الكتب الرياضية والفلكية، وله دراسة عن إقليدس الهندسي بالعربية [12]، ومنهم كذلك **(جيرار دى كريمون 1114 - 1187م)** و**(بطرس المحترم 1092–1156م)**، الذي طالب الدارسين للغة العربية بترجمة القرآن للغة اللاتينية لفهمه، ثم التشكيك في ما ورد فيه.

نستنتج مما سبق ذكره، أن البدايات الأولى للاستشراق كانت نتيجة احتكاك القساوسة والرهبان بالحضارة الإسلامية وتعلمهم اللغة العربية والتعمق في الدراسات الإسلامية بغية فهم هذا

الدين، ثم الرّد عليه ثانياً، ومحاولة نقضه من أساسه، أو مناظرة فقهاء المسلمين، والرد عليهم بأدلة وبراهين مستقاة من الكتب، أو رد أتباعه إلى ديانتهم، فكان بذلك أداة من الأدوات التبشيرية، وهكذا انتشر تعليم اللغة العربية في الجامعات والمدارس الأوروبية، وأنشئت المطابع لنسخ الذخائر العربية، كما تخصص آخرون باللغات الشرقية الأولى كالعبرية والفارسية.

2.2. فترة الحروب الصليبية:

كانت الحروب الصليبية من أهم الأحداث الكبرى في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في القرن الثالث عشر ميلادي، حيث يرجع الدارسين لتاريخ الاستشراق أن هذه الحروب مثلت أولى بدايات الاحتكاك الفعلية بين المسلمين والمسيحيين، الأمر الذي دفعهم إلى محاولة التعرف على ثقافتهم، فكان لهذا أبلغ الأثر على الاستشراق والدعوات التبشيرية، وكان الشرق مجالاً خصباً لآلاف من الكتب والمباحث والمقالات والتحليلات عن أسباب اندلاعها ونتائجها وآثارها السياسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية. هذه الآثار لم يسلم منها الشرق والغرب، فكلاهما قد أثر وتأثر بصاحبه، وكل طرف نظر إلى هذه الحروب من زاويته هو.[13]

أثارت هزيمة الغرب في الحروب الصليبية، وخروجه من المعارك يجر أذيال الخيبة، والتي كانت سببا رئيسيا في إلهاب فضول وحماس الغرب لدراسة الشرق والإسلام خاصة بروح عدائية حقودة، فأثار الشرق الغربيين، وخاصة في الدراسات الإسلامية التي يكون جوهرها الدين، فانتقل الغزو من الميادين العسكرية إلى الساحة الثقافية والفكرية، فنشطوا في الهجوم على الإسلام وأهله، والتشكيك فيه والانتقاص من قيمته، وتولى اللاهوتيون النصارى أكبر الحملات الهجومية، دون مصدر لتلك الافتراءات إلا الخيال والأساطير، التي لا تمت للواقع بصلة. [14]

لا يختلف اثنان من مؤرخي الغرب في مدى تأثير الحروب الصليبية على ما يسمى بالنهضة الأوربية، نتيجة احتكاك الصليبيين بالإسلام وجها لوجه، خاصة على التيارات الفكرية التي بدأت تظهر في أوربا حين عادوا الى بلدانهم، سواء كانت هذه التيارات الفكرية تكن عداء صريحا للإسلام، أو تكن اعجاباً مخفيا بثروات الشرق، تنظر لها بعين الشراهة والحسد، فهذان السببان تحكما قروناً طويلةً في علاقة الغرب بالشرق، والتي كانت من أهم الدوافع لهذه الحروب الصليبية، ولعل أصدق وصف لشراهة أوربا هو وصف المؤرخ الأمريكي « **داكوبرت رونس** »، حين قال: «**لم تنتج الحروب الصليبية غير آثار الدمار للشرق وللغرب، وقد سببها اولئك الذين ركبتهم شراهة التوسع على حساب غيرهم، اولئك الذين حملوا الصليب على أكتافهم والشيطان في قلوبهم، ومع هذا فإن تأثير الحضارة الاسلامية والبيزنطية عليهم لم يكن في استطاعتهم تجنبه أو تحاشيه، وهنا بدأ شعاع الشرق يشع من خلال الكوى**

على أوربا القرون الوسطى المظلمة. وأن ما يسمى بالنهضة في أوربا لم تكن في الواقع سوى اقتباس الثروة الحضارية لقرطبة وغرناطة وطليطلة، ونقلها إلى أوربا»(15).

لقد شكلت الحروب الصليبية الخلفية التاريخية لنظرة الغرب للشرق الإسلامي، فعندما انتهت هذه الحروب اكتشف أنها صاحبتها سرقة الآلاف من المخطوطات والكتب العربية، ونقلت إلى المكتبات الأوربية، مما أدى إلى الاهتمام بالشرق، وانكباب الدارسين على تراثه أكثر من ذي قبل.

2.3. مرحلة البداية العلمية للاستشراق:

البداية الحقيقية للاستشراق كانت وليدة الاهتمام الكبير الذي أولته أوروبا لبلدان ما وراء البحار، والتي يسميها الدارسون الاستشراق العلمي، حيث يمكن القول أنّه انطلق مع بداية القرن السادس عشر مع بداية الطباعة، والتي كانت خطوة كبيرة في تطور الاستشراق، فتحركت الدوائر العلمية وزادت نسبة إصدار الكتب.

نشطت الدراسات الاستشراقية مع تأسيس كراسي للغة العربية في بعض الجامعات الأوربية، ويؤكد « **إدوارد سعيد**» هذه البداية بقوله: «**يُؤرخ لبدء وجود الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع (فينا) الكنسي عام 1312م، بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا**»(16)، وتلاه عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته، وما تزال تعقد حتى هذه الأيام.

أما في القرن الثامن عشر فقد مثلت حملة نابليون بونابرت على مصر انطلاقا فعليا للحركة الاستشراقية، حيث اصطحب معه مطبعة وعددا من العلماء والباحثين، حدد «**مكسيم رودنسون**» الظهور الأول لكلمة استشراق في إنجلترا في عام 1779م، وفي فرنسا أدرجت كلمة الاستشراق في معجم الأكاديمية الفرنسية سنة 1838، ولقيت فكرة وجود فرع مختص في دراسة الشرق تأييدا كبيرا. (17)

أما في القرن التاسع عشر فقد عقد أول مؤتمرات المستشرقين سنة 1873م، وتميز الاستشراق في هذه المرحلة بنزعته العلمية والتخصصية، وبتحرره بصورة معينة من الخلفيات الدينية، ومع ظهور التفوق الأوروبي الاقتصادي والتقني والعسكري والسياسي، بداية من المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهرت النزعة العرقية الغربية، ومبدأ التمركز على الذات، والذي ظهر أثرها في الدراسات الاستشراقية عن الشرق الإسلامي في هذه الفترة.(18)

وفي القرن العشرين وبالأخص طيلة عقوده الثلاثة وحتى الأربعة الأولى ظل الاستشراق متأثراً بالمركزية الأوربية القائمة على الاعتقاد بمحورية النموذج الحضاري الأوروبي وشموليته.(19)

هكذا نشأ الاستشراق وتطور عبر العصور، رغم صعوبة تحديد بداياته الأولى، ورغم تضارب الأقاويل حول صعوبة تحديد الزمن بدقة، وإن لاحظنا فإنّ الاستشراق هو امتداد للتنصير، لذلك لا يمنع من أن يحدد ظهوره بالعصور الأولى للدولة الإسلامية، لكنه لم يكتمل بوجهه الجديد إلا في القرن الثامن عشر، مع نشأة المدارس، وانعقاد المؤتمرات وانتشار البعثات والمعاهد والجمعيات، حتى صار حركة ضخمة لا يستهان بها ساهمت في نشر العديد من الأفكار، كما كانت الداعم الكبير للحركات الاستعمارية، والوجه الآخر والخفي لها.

3. الاستشراق بين النهاية والاستمرارية:

تعد قضية انتهاء الاستشراق أو استمراره حتى عصرنا هذا محل نقاش أثاره العديد من الكتّاب والدارسين في مقالاتهم وكتبهم ومؤتمراتهم، يتساءلون حول ما آل إليه الاستشراق في العصر الحالي منهجاً وموضوعاً، وهل انتهى الاستشراق أم مازال مستمرا ليومنا هذا.

لقد ناقش الباحث «**أنور عبد الملك**» موضوع ما آل له الاستشراق في مقاله المعنون «**الاستشراق في أزمة**»، الذي نشر في مجلة (La Social Dialectique) في باريس سنة 1971، درس فيها الاستشراق من حيث مفهومه ومناهجه وأدواته ونقده، وأوصى بضرورة نقد كل ما ينتجه المستشرقون، خاصة أن الدول التي كانت مستعمرة بالأمس أصبحت اليوم دولا لها سيادتها، يقول: « **في هذه الآونة، تعتمل الاستشراق: منذ (1945م)، لم يعد « الحقل » هو الذي يستعصي عليه وحسب، بل البشر أيضاً، البشر الذين كانوا بالأمس «موضوعاً » للدرس، وأصبحوا اليوم « ذواتاً » أسياداً** »[20] ، فذكر بأن الأزمة بدأت تعتمل في صميم الاستشراق منذ عام 1945م .

يرجع الباحث «**محمد خليفة**» في كتابه: «**أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر**» أزمة الاستشراق المعاصر إلى مجموعة من الأسباب التي يرجع أغلبها إلى فترات تاريخية مختلفة، منها أسباب راجعة للبدايات الأولى للاستشراق، والتي استمرت حتى العصر الحديث، وأسباب ارتبطت بالتاريخ الحديث والمعاصر، وأثرت هذه الأسباب على طبيعة الاستشراق، ونتج عنها نوع من الغموض في ماهية الاستشراق وأغراضه، كما ارتبط بشخصية المستشرقين وأيديولوجياتهم عبر العصور، وترتب عن هذه الأسباب جملة من الأزمات، نذكر من بينها:[21]

- أزمة الهوية، نتيجة غموض أهداف الاستشراق، وصعوبة تحديد طبيعته التي اختلف الدارسون في تحديدها، هل هو علم أم حركة فكرية أو مذهب؟ وغير ذلك.
- أزمة تحديد المنهج في الدراسات الاستشراقية، فهي ليس لها منهج واضح في الدراسة مقارنة بالمناهج العلمية.

• الأزمة الأخلاقية، التي كان لها أغراض مشبوهة في الشرق، خاصة من الناحية السياسية والدينية، مما أدى إلى استغلال المعرفة الاستشراقية من طرف القيادات السياسية الاستعمارية، أو القوى الدينية التنصيرية والصهيونية.

• الأزمة التي أوجدها الاستشراق في العلاقات بين الشرق والغرب، وخاصة علاقة المسلمين مع الآخر الغربي، وما تولد عنها من صراعات دينية وحضارية بين الإسلام وديانات الغرب الأخرى.

حدد «**محمد خليفة**» أن هذه الأزمات لها أسبابها، وحددها في كتابه: «**أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر**» في قوله:(22)

• التبعية الاستشراقية للحركات الاستعمارية والتنصيرية.

• تطور علم الاجتماع والعلوم والإنسانية في الغرب.

• تغيب المنهج عن الدراسات الاستشراقية.

• صحوة المسلمين ومواجهتهم للاستشراق والحركات التنصيرية.

طرح الباحث «**مازن مطبقاني**» موضوع نهاية الاستشراق أو استمراريته في كتابه: «**الاستشراق المعاصر في منظور الاسلام**»، من خلال طرحه إشكالية هل انتهى الاستشراق حقاً؟ وعرض آراء النقاد الأجانب والعرب الذين ناقشوا القضية بين مؤيد لاستمراريتها ومعارض لها معلنا نهايتها، وقسم أراءهم في ثلاثة محاور، المحور الأول: نهاية الاستشراق كما يراها الغرب في دراساتهم، المحور الثاني: نهاية الاستشراق في وفق رأي الكتاب العرب، المحور الثالث: استمرار الاستشراق من خلال رصد نشاطاته.

كان الإسباني «**فرانسيسكو غابريلي** Gabreili Francesco» من بين المستشرقين الغربيين الذين أعلنوا فكرة نهاية مرحلة الاستشراق في الدراسات الغربية، وكذلك فعل الفرنسي «**كلود كاهين** Cahene Claude»، والإنجليزي «**برنار لويس**» الذي كتب مقالة بعنوان: «**مسألة الاستشراق**»، التي تناول فيها ما أصدره علماء الاستشراق في مؤتمرهم العالمي بباريس سنة 1973، يقول: «**لقد أصبحت كلمة مستشرق منذ الآن فصاعدا ملوثة هي الأخرى، وليس هناك أمل في الخلاص**»(23)، ويرجع «**مازن مطبقاني**» سبب تغير التسمية بعد الضجة التي أثيرت بعد ذيوع كتاب: « **الاستشراق** » للكاتب «**إدوارد سعيد**»، وفضحه الوجه الحقيقي للاستشراق والمستشرقين، وخططهم التي يخفونها وراء ستار أن دراساتهم ماهي إلا دراسات علمية، ليس لها أي أغراض دفينة لتشويه الشرق والشرقين والتشكيك في ثقافتهم ودينهم، وتصويرهم في صورة شعوب متخلفة، ينتظرون الخلاص والتحضر من الغرب، حيث صنف «**إدوارد سعيد**» الاستشراق في كتابه الى صنفين: «**استشراق كامن واستشراق سافر**»، أن هناك مستشرقين قدموا دراسات قيمة اتسمت بالحيادية والمهنية العلمية، وهناك صنف من

المستشرقين يغلب على أعمالهم التجاوزات والانزياحات والأخطاء والمغالطات، ولم تنتهج دراساتهم الشكل العلمي، ويؤكد «**برنار لويس**» على هذا في قوله: « **لنا أن نتساءل ما الأسباب التي أدّت إلى أن تصبح كلمة مستشرق ملوثة؟ هل أتى هذا التلوث من فراغ أو كان للمستشرقين يد في إحداث هذا التلوث، بما ارتكبوه من أخطاء جسيمة في دراستهم للإسلام ولتاريخ الأمة الإسلامية**»[24]، واصطباغ الاستشراق بالتلوث كان نتيجة انزياحات معرفية وفكرية، لما أقدم عليه المستشرقون من انتهاكات وتخريب للثقافة الشرقية والإسلامية خاصة.

أما في الطرف الثاني نجد النقاد العرب مثل: (**أكرم ضياء العمري، وعبد الأمير الأعسم وأنور عبدالملك**) الذين أيدوا فكرة استمرار وجود الاستشراق إلى يومنا هذا، رغم تغير تسمياته، نحو قول الباحث «**مازن مطبقاني**»: « **قضية نهاية الاستشراق تعود إلى فترة أقدم من محاضرة العمري، أو مقال علي حرب، فقد عقد المستشرقون آخر مؤتمر لهم تحت رعاية المنظمة الدولية للمستشرقين في مدينة باريس عام 1973، وفي هذا المؤتمر دار نقاش وتصويت بين المستشرقين على تغيير الاسم، وتسمية الجمعية باسم جديد هو المؤتمر العالمي للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال إفريقيا**».[25]

وبالتالي فقد عرفت الدراسات الاستشراقية تغيرات شكلية فقط، لكن مهما تغيرت المسميات يبقى الجوهر واحدا وهو مايزال موجودا، بينما يلاحظ بروز أشكال جديدة للاستشراق، يصنفها «محمد خليفة» في كتابه: «أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر» إلى:[26]

- غياب المستشرق التقليدي، وتبديله بالخبير المتخصص في مجال من المجالات، السياسية والاقتصادية والدينية والعسكرية واللغوية والأدبية وغيرها.
- نقص في التكوين العلمي والأيديولوجي للمستشرق.
- ظهور مراكز البحث في الشرق الأوسط، والتي حلت محل مراكز الاستشراق التقليدية.
- نشأة الدراسات الإقليمية.

ونؤكد في نهاية المطاف إلى أنه طالما هناك غرب وشرق فسيظل الاستشراق موجودا، فهو من أقدم الحركات الفكرية الغربية، ورغم تسويق الغرب لفكرة انتهاء الاستشراق، لكنه لم ينته بالفعل، رغم تغير تسمياته وأشكاله وأساليبه في الدراسة، فالاستشراق يتلون ويتكيف ووفق متطلبات العصر، يتكيف مع المتغيرات السياسية والفكرية والاقتصادية فى العالم، ويأخذ الأشكال التي تتناسب مع أوضاع كل عصر، وعلى الدارسين العرب متابعة أعمال المستشرقين خاصة في الدراسات الإسلامية لدحضها وتوضيح أخطائها، وتقويم منهجيتها، والاستمرار في نقده، فليس الاستشراق إلا صورة ورؤية للشرق فكرا وثقافة وحضارة في عيون الأخر الغربي.

4. خاتمة:

ومن خلال ما عرضناه في ورقتنا البحثية هذه، حول نهاية الاستشراق أو استمراره في عصرنا الحالي، خلصنا إلى ما يأتي:

• يمثل الاستشراق صورة التقاء الغرب بالشرق، فهو حركة فكرية ثقافية بدأت مع ظهور الإسلام، حيث تناولت الدراسات الاستشراقية الأولى في معظمها قضايا تتعلق بالدين، كترجمة القرآن ودراسة الفقه الإسلامي من طرف رهبان نصرانيين، لمعرفة هذا الدين ومناظرته والرد على أئمته او لشن حملات تنصيرية.

• مثلت فترة فتح المسلمين الأندلس البداية الحقيقية للحملات الاستشراقية على الشرق، الذي كان فيها الشرق منارة للعلم وقبلة لكل طالب علم، بينما كان الغرب غارقا في جهله وسلطة الكنيسة، فكانت هذه الفترة تمثل أبرز فترات التأثير الحضاري الإسلامي في الحضارة الغربية.

• مثلت الحروب الصليبية البداية التاريخية لاحتكاك الغرب بالشرق الإسلامي، وعكست ما يحمله الغربيون من ضغينة وكراهية للدين الإسلامي، فكان الاستشراق صورة للغزو الثقافي والوجه الآخر للغزو العسكري.

• مثل مؤتمر (فيينا) 1312م، الذي أنشئ فيه كراسي اللغة العربية في الجامعات الغربية البداية الفعلية للاستشراق العلمي الأكاديمي، وشكل منعطفا هاما في تاريخه، حيث انتقل من دراسات فردية يقوم بها أفراد الى علم قائم بذاته، يدرس وفق أساليب ومناهج خاصة في الدراسة.

• أما في عصرنا الحالي تبين لنا من خلال ما طرحناه من آراء للنقاد والدارسين أن الاستشراق حركة فكرية لاتزال مستمرة في عصرنا الحالي، رغم اعلان الغرب موته ونهايته، وتغير تسمياته، فلايزال جوهر هذه الدراسات موجود، رغم تغير المسميات باسم الدراسات الأنثروبولوجيا أو الاجتماعية، وهذا لم يغير في مضمون وحقيقة الاستشراق شيئاً.

• يتخذ الاستشراق اليوم أشكالا تتناسب مع أوضاع عصرنا، وعلى الدارسين العرب متابعة أعمال المستشرقين في الدراسات الإسلامية لتوضيح أخطائها، وتقويم منهجيتها، والاستمرار في نقده، فالاستشراق هو صورة رؤية الشرق فكرا وثقافة وحضارة في عيون الأخر الغربي.

الهوامش:

1) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين بن مكرم)، لسان العرب، ج 10، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2،2005، ص303.

2)ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، بالقاهرة ، ج1، ط 4، 2004، ص480.

3) إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 2000، ص09.

4) لخضر شايب، نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر، الجزائر، 2001، ص26.

5) رودى بارت، الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية (المستشرقون الالمان منذ تيدور نولدكه) ترجمة (مصطفى ماهر)، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص 11.

6) شاخت جوزيف وبوزورث كليفورد، تراث الإسلام، تر: محمد زهير السمهوري وآخرون، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص64.

7) إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص44.

8) المرجع نفسه، ص45.

9) المرجع نفسه، ص46.

10) أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، مطبعة النهضة، مصر، 2004، ص512.

11) د. محسن محمد حسين، الاستشراق برؤية شرقيّة، دار الوراق، لبنان، ط1، 2011، ص40.

12) ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي(الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية)،ج1، دار المداد الإسلامي، لبنان، ط1 ،2002،ص42.

13) المرجع نفسه، ص49.

14) قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار الرفاعي، الرياض، ط1، 1983، ص30.

15) المرجع نفسه، ص32.

16) إدوارد سعيد، الاستشراق (المعرفة – السلطة – الإنشاء)، تر: كمال أبو الديب، الأبحاث العربية، بيروت، ط 2، 1984، ص80.

17) إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، ص25

18) سالم حميش، الاستشراق في أفق انسداده، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ط 1،1991، ص20

19) المرجع نفسه، ص21

20) أنور عبد الملك، الاستشراق في أزمة، تر: حسن قبيسي، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 32، أفريل 1983، بيروت، ص 70.

21) محمّد خليفة حسن، أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط1 ،2000، ص21.

22) المرجع نفسه، ص21.

23) مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق المعاصر في منظور الاسلام، دار البشير للثقافة، ط1، 2021، ص14.

24) المرجع نفسه، ص14.

25) المرجع نفسه، ص12.

26) محمد خليفة حسن، أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر، ص122-123.

5. قائمة المصادر والمراجع:

1) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين بن مكرم)، لسان العرب، ج 10، دار صادر، بيروت، لبنان، ط2،2005.

2) ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، بالقاهرة، ج1، ط 4، 2004.

3) إسماعيل علي محمد، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 2000.
4) لخضر شايب، نبوة محمد في الفكر الاستشرافي المعاصر، الجزائر، 2001.
5) رودى بارت، الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية (المستشرقون الالمان منذ تيدور نولدكه) ترجمة (مصطفى ماهر)، دار الكتاب العربي، القاهرة.
6) شاخت جوزيف وبوزورث كليفورد، تراث الإسلام، تر: محمد زهير السمهوري وآخرون، عالم المعرفة، الكويت، 1978.
7) إدوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.
8) أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، مطبعة النهضة، مصر، 2004.
9) محسن محمد حسين، الاستشراق برؤية شرقيّة، دار الوراق، لبنان، ط1، 2011.
10) ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي (الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية)، ج1، دار المداد الإسلامي، لبنان، ط1 ،2002.
11) قاسم السامرائي، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار الرفاعي، الرياض، ط1، 1983.
12) إدوارد سعيد، الاستشراق (المعرفة – السلطة – الإنشاء)، تر: كمال أبو الديب، الأبحاث العربية، بيروت، ط 2، 1984.
13) سالم حميش، الاستشراق في أفق انسداده، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ط1،1991.
14) أنور عبد الملك، الاستشراق في أزمة، تر: حسن قبيسي، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 32، أفريل 1983، بيروت.
15) محمّد خليفة حسن، أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط1،2000.
16) مازن صلاح مطبقاني، الاستشراق المعاصر في منظور الإسلام، دار البشير للثقافة، ط1، 2021.